تفسير ابن كثير

قد تقدم الكلام على قوله تعالى : { سبح ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم } غير مرة بما أغنى عن إعادته وقوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون } إنكار على من يعد وعدا أو يقول قولا لا يفي به ولهذا استدل بهذه الاية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقا سواء ترتب عليه عزم الموعود أم لا واحتجوا أيضا من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال : [آية المنافق ثلاث إذا وعد أخلف وإذا حدث كذب وإذا اؤتمن خان] وفي الحديث الاخر في الصحيح [أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها] فذكر منهن إخلاف الوعد وقد استقصينا الكلام على هذين الحديثين في أول شرح البخاري و الحمد والمنة ولهذا أكد ا تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى : { كبر مقتا عند ا أن تقولوا ما لا تفعلون } .

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد ا بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول ا صلى ا عليه وسلّم وأنا صبي فذهبت لأخرج لألعب فقالت أمي : يا عبد ا تعال أعطك فقال لها رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [وما أردت أن تعطيه ؟] قالت : تمرا فقال : [أما إنك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة] وذهب الإمام مالك C تعالى إلى أنه إذا تعلق بالوعد غرم على الموعود وجب الوفاء به كما لو قال لغيره تزوج ولك علي كل يوم كذا فتزوج وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك لأنه تعلق به حق آدمي وهو مبني على المضايقة وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقا وحملوا الاية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم فلما فرض نكل عنه بعضهم كقوله تعالى : { ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية ا أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة } .

وقال تعالى : { ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ؟ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت } الاية وهكذا هذه الاية معناها كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون } قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون لوددنا أن ا D دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به فأخبر ا نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به فلما نزل الجهاد كره

ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فقال الله سبحانه وتعالى : { يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون } وهذا اختيار ابن جرير : وقال مقاتل بن حيان : قال المؤمنون لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به فدلهم الله على أحب الأعمال إليه فقال : { إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا } فبين لهم فابتلوا يوم أحد بذلك فولوا عن النبي صلى الله عليه وسلّم مدبرين فأنزل الله في ذلك { يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون } وقال : أحبكم إلي من قاتل في سبيلي .

ومنهم من يقول : أنزلت في شأن القتال يقول الرجل قاتلت ولم يقاتل وطعنت ولم يطعن وضربت ولم يضرب وصبرت ولم يصبر وقال قتادة والضحاك : نزلت توبيخا لقوم كانوا يقولون قتلنا وضربنا وطعنا وفعلنا ولم يكونوا فعلوا ذلك وقال ابن زيد : نزلت في قوم من المنافقين كانوا يعدون المسلمين النصر ولا يفون لهم بذلك وقال مالك عن زيد بن أسلم { لم تقولون ما لا تفعلون } قال : في الجهاد وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد { لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون * إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص } فما بين ذلك في نفر من الأنصار فيهم عبد الله بن رواحة قالوا في مجلس لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا بها حتى نموت فأنزل الله تعالى هذا فيهم فقال عبد الله بن رواحة لا أبرح حبيسا في سبيل الله حتى أموت فقتل شهيدا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا فروة بن أبي المغراء حدثنا علي بن مسهر عن داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود الديلي عن أبيه قال : بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه منهم ثلثمائة رجل كلهم قد قرأ القرآن فقال أنتم قراء أهل البصرة وخيارهم وقال كنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيناها غير أني قد حفظت منها { يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون } فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة ولهذا قال تعالى : { إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص } فهذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين إذا صفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان .

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن عبد الله حدثنا هشيم أخبرنا مجالد عن أبي الوداك عن أبي سعيد الخدري Bه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : [ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل والقوم إذا صفوا للصلاة والقوم إذا صفوا للقتال] ورواه ابن ماجه من حديث مجالد عن أبي الوداك جبر بن نوف به وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين حدثنا الأسود يعني ابن شيبان حدثني يزيد بن عبد الله بن الشخير قال : قال مطرف كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه فلقيته فقلت يا أبا ذر كان يبلغني عنك

حديث فكنت أشتهي لقاءك فقال : أبوك فقد لقيت فهات فقلت كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم حدثكم أن ا يبغض ثلاثة ويحب ثلاثة قال أجل فلا إخالني أكذب على خليلي صلى ا عليه وسلّم قلت فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم ا D ؟ فقال : رجل غزا في سبيل ا خرج محتسبا مجاهدا فلقي العدو فقتل وأنتم تجدونه في كتاب ا المنزل ثم قرأ { إن ا يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص } وذكر الحديث هكذا أورد هذا الحديث من هذا الوجه بهذا السياق وهذا اللفظ واختصره وقد أخرجه الترمذي والنسائي من حديث شعبة عن منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش عن زيد بن ظبيان عن أبي ذر بأبسط من هذا السياق وأتم وقد أوردناه في موضع آخر و الحمد .

وعن كعب الأحبار أنه قال : يقول ا تعالى لمحمد صلى ا عليه وسلّم : [عبدي المتوكل المختار ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر مولده بمكة وهجرته بطابة وملكه الشام وأمته الحمادون يحمدون ا على كل حال وفي كل منزلة لهم دوي كدوي النحل في جو السماء بالسحر يوضون أطرافهم ويأتزرون على أنصافهم صفهم في القتال مثل صفهم في الصلاة] ثم قرأ { إن ا يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص } رعاة الشمس يصلون الصلاة حيث أدركتهم لو على ظهر دابة رواه ابن أبي حاتم وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى : { إن ا يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا } قال : كان رسول ا صلى ا عليه وسلّم لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم وهذا تعليم من ا للمؤمنين قال وقوله تعالى : { كأنهم بنيان مرصوص } أي ملتصق بعضه في بعض من الصف في القتال وقال مقاتل بن حيان : ملتصق بعضه إلى بعض وقال ابن عباس { كأنهم بنيان مرصوص } مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض .

وقال قتادة { كأنهم بنيان مرصوص } ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه فكذلك ا D لا يحب أن يختلف أمره وإن ا صف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم فعليكم بأمر ا فإنه عصمة لمن أخذ به أورد ذلك كله ابن أبي حاتم وقال ابن جرير : حدثني سعيد بن عمرو السكوني حدثنا بقية بن الوليد عن أبي بكر بن أبي مريم عن يحيى بن جابر الطائي عن أبي بحرية قال : كانوا يكرهون القتال على الخيل ويستحبون القتال على الأرض لقول ا D : { إن ا يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص } قال : وكان أبو بحرية يقول : إذا رأيتموني ألتفت في الصف فجئوا في لحيي